يكون بالعمل به، تصديقًا بأخباره، وعملًا بأحكامه، وما أشبه ذلك.

قوله: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ «**اللام**» هنا للتعليل، وهو بيان الحكمة من إنزاله، وكل الآيات -سواء طالت الآية أم قصرت- يجب علينا أن نتدبرها، فمثلًا قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وهي أطول آية في القرآن، يجب علينا أن نتدبرها، وعلينا أن نتدبر قول الله -تعالى-: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر:٢١]، وهي من أقصر الآيات، مَنِ الذي نظر؟ وهل نظر بفكره، أم نظر بعينه؟ لا بد أن نعرف هذا.

قوله: ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: ليتعظ أولو العقول، والعقل هو اللب، ورجل بلا عقل ليس برجل في الواقع.

وقوله -تعالى-: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ «**الهمزة**» هنا للاستفهام الذي يُراد به التوبيخ.

قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ «أم» هنا هل هي متصلة، أم منقطعة؟

نقول: الضابط إذا كانت «أم» بمعنى «بل» فهي منقطعة، وإذا كانت بمعنى «أو» فهي متصلة، فإذا قلت: أجاء زيد أم عمرو، فهي متصلة، وفي هذه الآية ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ أي: بل على قلوب أقفالها، فقلوبهم مقفلة عن تدبر القرآن، والأقفال: جمع قفل، وهو ما يغلق بها الأشياء.

وجه الدلالة من الآية الأولى: أن الله -تعالى- بيَّن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك، وهو أن يتدبر الناس آياته، ويتعظوا بما فيها هذه هي الحكمة،

وليست الحكمة أن يتبركوا به، أو أن يتلوه تلاوة مجردة، هذه لا شك أنها منفعة، ومصلحة، ورحمة بالخلق، لكن المهم أن يتدبروه ويتعظوا به.

فلو قال قائل: كيف يكون التدبر والاتعاظ في آيات الأحكام، مثل قوله -تعالى-: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢]؟

الجواب: أن نقول: إن الموعظة ليس معناها لين القلب، أو خشوع القلب وما أشبه ذلك، فالاتعاظ هو التزام الأحكام، ولهذا قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [النساء:٥٨]، فَجَعَل هذه موعظة، فالتزام الأحكام اتعاظٌ لا شك، وليست الموعظة فقط ما يرقق به القلوب.

أرأيت لو أن إنسانًا أعطاك كتابًا في الطب، فهل ستنتفع بما فيه من الإرشادات الطبية دون تدبره وتفهمه؟

الجواب: لا يمكن هذا، فكذلك القرآن الكريم لا يمكن أن ينتفع به الإنسانُ تمام الانتفاع إلا بالتدبر، ثم بعد ذلك يتعظ.

ثم قال المؤلف: «يقول وجه الدلالة: أن الله بيَّن أن الحكمة من إنزاله هذا القرآن المبارك أن يتدبر الناس آياته ويتعظوا بما فيها، والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها».

هذا هو التدبر، أنك تتأمل، وسُمِّي تدبرًا؛ لأن الإنسان يجول بعقله بين الأفكار والمعاني المحتمَلة؛ حتى يصل إلى المعنى المراد.

قوله: «فإذا لم يكن ذلك» يعني التدبر.

قوله: «فاتت الحكمة من إنزال القرآن وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها»، وهذا واضح، أن الله لم يكن لِيُنَزل قرآنًا يقول للناس: (اقرؤوا ألفاظه دون أن تفهموا معانيه) أبدًا.

وقوله: «لأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه»، وهذا صحيحٌ، ولا يمكن أن تتعظ بالقرآن وتعمل بما أراد الله منك بدون فهم لمعانيه؛ ولذلك تَبيَّن وجه الدلالة على وجوب التدبر من قوله -تعالى-: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾.

«ووجه الدلالة من الآية الثانية: أن الله وبخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن»، وذلك بمجيء الهمزة للاستفهام. والمراد به التوبيخ، وإشارة إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم، وعدم وصول الخير إليها.

***

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد الله به، فإن العمل بما لا يعرف معناه غير ممكن.

وقال أبو عبد الرحمن السلمي[1]: «حدثنا الذين كانوا يُقرئُونَنا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما، أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات، لم يجاوزوها، حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن، والعلم، والعمل جميعًا».

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٥٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٩٥٣)، وبنحوه عند عبد الرزاق في المصنف (٦٠٢٧)، وابن أبي شيبة (٦/ ١١٧).

الشرح

هذا الأثر على ما فيه من خلاف في صحته، نقول: إنه يدُلُّ على أن من عادة السلف أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات تعلموا معناها، ثم عملوا بها، وهكذا ينبغي لنا نحن أن نتعلم المعنى، ثم نعمل حتى يكون القرآن نزل مباركًا، ليتدبر الناس آياته، ويتذكروا به.

***

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: «والعادة تمنع أن يقرأ قومٌ كتابًا في فنٍّ من العلم كالطب، والحساب، ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتُهم، وبه نجاتهم، وسعادتهم، وقيام دينهم، ودنياهم».

الشرح

هذا مثال من شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: العادة أن الإنسان إذا قرأ كتابًا في فنٍّ من الفنون، فإنه لا يقرؤه قراءة مجردة لفظية؛ ولو فعل لم ينتفع به، بل لا بد أن يستشرحه، أي: يطلب من يشرحه له معلمًا يعلمه المعنى، أو من التلميذ الذي فوقه أن يعلمه، وهلم جرّا.

***

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٣٣٢)، وانظر شرح مقدمة التفسير لفضيلة الشيخ الشارح (ص:٢٥).

ويجب على أهل العلم أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة، أو المشافهة، لقوله -تعالى-: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]، وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه، فيكون تفسير القرآن مما أخذ الله العهد على أهل العلم ببيانه.

الشـرح

حكم التفسير أنه واجبٌ على التفصيل الذي ذكرناه، وطريقة السلف في القرآن أنهم يتعلمون ألفاظه ومعانيه ويعملون به، فإذا نزلت آياتٌ في البيع تعلموا هذه الآيات وعملوا بها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ [الجمعة:٩]، ولا يمكن أن يظن الظَّانُّ أن الصحابة -رضي الله عنهم- يدعون الصلاة ويُقبلون على البيع، فهم لم يعملوا بذلك مطلقًا، وهكذا بقية الآيات؛ حتى إن النبي -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- لما خطب النساء وأمرهن بالصدقة وقال: «**إِنَّكَنَّ أَكْثَرُ أَهْلِ النَّارِ**»[1]، صارت المرأة تأخذ خرصها من أذنها وخاتمها من أصبعها، وتلقيه إلى بلال -رضي الله عنه-، امتثالٌ تامٌّ، نسأل الله أن يجعلنا من المتبعين لآثارهم.

مسألة: هل يجب على أهل العلم أن يبينوا للناس معنى القرآن سواء سألوهم أم لا؟

نقول: نعم، يجب إذا سأله الناسُ بلسان الحال، أو بلسان المقال، فمثلًا: إذا سَمِع الإنسانُ أن الناسَ يُفسِّرونَ بعض الآيات على غير ما أراده الله،

(١) أخرجه البخاري: كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم (٣٠٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، رقم (٨٠).

فالواجب عليه أن يُبَيِّن المعنى الذي أراده الله؛ لأن العوام أحيانًا يفسرون الآيات بغير ما أراده الله، بل أحيانًا يصنعون آيات من عندهم، تجده مثلًا يقول: صدق الله العظيم، وجعلنا لكل شيء سببًا، وهذا ليس موجودًا في القرآن، لكن هم يعلمون أن الأشياء بأسبابها، فالمهم أنه إذا رأى الإنسان أنه لا بد أن يبين معنى القرآن بلسان الحال، أو بلسان المقال، وجب عليه البيان، وينبغي أن يجعل للعامة مجلسًا لتفسير القرآن.

وكان شيخنا عبد الرحمن بن سعدي -رحمه الله- يفعل ذلك، كان بين العشائين يفسر القرآن من أوله إلى آخره، لكنها قراءة عامة، يكون في المحراب، ويقرأ عليه أحد الطلاب، ويشرح معاني الآيات، فيبين ويحضر العامة ويفهمون، ولو جعل طالب العلم في مسجده الخاص درسًا في تفسير القرآن لنفع وانتفع.

***

والغرض من تعلُّم التفسير هو الوصولُ إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها، وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله؛ ليُعْبَدَ اللهُ بها على بصيرة.

الشرح

وهذا غرضٌ سامٍ يتحقق به قول الله -تعالى-: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، وتصديق الأخبار هذه من غايات علم التفسير، أن تصدق الخبر وتنتفع به لا مجرد أن تفهمه فقط.

فمثلًا: إذا قال الله -تعالى-: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرًا﴾ [النساء:٥٨]، فهذا خبر ينتفع به الإنسان، والانتفاع ليس مجرد أن تعلم أن الله سميع بصير، بل الانتفاع أن تخشى اللهَ، فلا تقولَ ما يسمع منك وهو مما لا يرضاه، ولا تفعل ما يبصره ويراه وهو مما لا يرضاه.

ولما قصَّ الله -عز وجل- علينا قصص الأنبياء السابقين قال سبحانه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، ينتفع بها الإنسان، ينتفع بها إذا كانت وعيدًا وهلاكًا، ينتفع بها إذا كانت فوائد وحكمًا، كما في قصة ذي القرنين، وقصة أصحاب الكهف، وفي قصة يوسف وغيرها من القصص النافعة، كما قال الله -عز وجل-: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف:٣].

وخلاصة هذا البيان: أن تفسيرَ القرآن هو بيانُ معناه، وأن تعليم التفسير واجبٌ، وأن الوجوب عينيٌّ وكفائيٌّ، وأن عادة السلف في القرآن أنهم إذا تعلموا عشرَ آيات أو نحوها، تعلموا معانيها وعملوا بها، وأنه ينبغي لخلف الأمة أن يتَّبِعوا أَثَرَ سلفهم؛ لأنه هو الخير.

***

الواجب على المسلم في تفسير القرآن

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يُشْعِر نفسَه حين يُفَسِّر القرآن بأنه مترْجِمٌ عن الله تعالى، شاهدٌ عليه بما أراد من كلامه.

الشرح

وهذه مسئولية عظيمة، فالمفسر لكلام الله -عز وجل- هو بمنزلة المترجم له؛ لأنك تقولُ للناس: (أراد الله كذا وكذا)، فاحذر أن تكذب وأن تقول: (أراد الله كذا) وهو لم يرده، فتكون كاذبًا على الله -عز وجل-، وهو كذلك شاهدٌ عليه بما أراد من كلامه؛ لأنك إذا فسَّرت كلامَ الله، فقد شهدت على ربك بأنه أراد كذا وكذا.

مثال ذلك: ذهب بعض المتأخرين إلى أن قوله -تعالى-: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً﴾ [النمل:٨٨] أن المراد بها في الدنيا، وأن هذا إشارة إلى أن الأرض تدور، فنقول: أنت الآن مترجِم، هل الترجمة مطابقة للمترجَم؟ الجواب: يجب أن تكون مطابقة، ثم ثانيًا: هل أنت الآن تشهد على الله بأنه أراد هذا المعنى الذي ذكرت أم لا؟ وسوف يُسأل الإنسان عن هذه الشهادة.

كذلك لما ظهرت الأقمار الصناعية، وظهر الوصول إلى الفضاء الخارجي، تحذلق بعض الناس وقال: هذا موجود في القرآن أن الناس يخرجون إلى الغلاف الخارجي، وذلك في قوله -تعالى-: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾ [الرحمن:٣٣] وهؤلاء الذين خرجوا

عن الغلاف الجوي، نفذوا من أقطار السماوات والأرض، فالآية تدل على أنه سيكون أناس على هذه السفن الفضائية، وينفذون من أقطار السموات والأرض، وهذا لا شك أنه تحريف، ونقول: أول ما بدأ الله بالسموات قبل الأرض، فهل نفذ هؤلاء من أقطار السموات؟ الجواب: لا، وحتى هم يقولون: ما نفذنا من أقطار السموات، ولو قربنا من الشمس لذُبْنا.

فعلى كل حال أقول: إن المفسر يجب عليه أن يستشعر هذا الشعور، وهو: أنه مترجم عن الله، وثانيًا: أنه شاهد على الله بأنه أراد كذا، وبهذا نعرف عظمة التفسير، وعظم القول به.

***

فيكون معظِّمًا لهذه الشهادة، خائفًا من أن يقول على الله بلا علم، فيقع فيما حرم الله، فيُخْزَى بذلك يوم القيامة، قال الله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، **وقال -تعالى-: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾** [الزمر:٦٠].

الشرح

إذن: الذي يفسِّر القرآنَ بغير ما أراد الله كاذبًا على الله، تكون وجوههم -بلا شك- ممن قال الله فيهم: ﴿مُسْوَدَّةٌ﴾ فالتفسير خطيرٌ، لكن مع ذلك هو مع النية الصادقة يسير، وييسره الله ويسهله ويوفق الإنسان للصواب فيه.

فإن قال قائل: وهل يجوز لي أن أفسره بما تقتضيه اللغة؛ لأنه بلسان عربي؟

الجواب: إذا كنتَ تعلم ذلك فلا بأس، أما إذا كنت لا تعلم فاتركه لغيرك لمن يعلم.

وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ ﴿إِنَّمَا﴾: أداةُ حصرٍ، يعني: ما حَرَّم إلا هذا.

وقوله: ﴿الْفَوَاحِشَ﴾ وهي جمع فاحشة، والفاحشة: هي كل ما يستفحش شرعًا أو عقلًا، ولا يجوز أن نقول: عادة؛ لأن بعضَ الفواحش العظيمة لا يستفحش عنها بلد، بل تقام فيه الحفلات والرقص وما أشبه ذلك. بل في بعض البلاد يترددون إلى القبور ويدعون أصحابها ولا يرون هذا فاحشة، بل يرون هذا قربة ووسيلة، فهل نقول أصبح التردد إلى القبور لدعائها غير حرام؟ لا، بلا شك.

فإن قال قائل: إننا نسمع كثيرًا من يقول: إن العقل والشرع متلازمان، فهل هذا صحيح؟

الجواب: نعم، هما متلازمان ولا يمكن أن يكون الشيء فاحشًا في الشرع إلا وهو فاحش في العقل، وقد يستفحش العقلُ شيئًا لا يستفحشه الشرع، لكن الغالب أنهما متلازمان.

وقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نقول: لها معنيان:

المعنى الأول: ما ظهر منها للناس، وما بطن، أي: ما خفي عليهم.

المعنى الثاني: ما ظهر فحشه، وما بطن أي: ما خفي؛ لأن من الفواحش ما هو ظاهر، ومنها ما هو خفي.

وقوله: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ «الإثم» كلُّ ما يأثم الإنسانُ به داخل في الآية، و﴿وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي: العدوان على الناس بغير حق، فإن قال قائل: وهل هناك بغي بحق؟ الجواب: لا، لكن قوله: ﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ هذه صفة كاشفة مبينة لكون البغي غيرَ حقٍّ، ونظير هذا قوله -تعالى-: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة:٢١]، وهل معنى هذا أنه يوجد ربٌّ لم يخلق؟ الجواب: لا، إذنْ هي صفة كاشفة.

وقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف:٣٣] أي: تشركوا بالله في ذاته، وفي ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته، فمثلًا: الممثلة أشركوا في الأسماء والصفات، وعابدو الأوثان أشركوا في الألوهية، والقائلون بأن هناك ربًّا مدبرًا أشركوا في الربوبية.

وقوله: ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾، هل معنى هذا أن هناك شركًا فيه سلطان؟ الجواب: لا، ولكن هذه صفة كاشفة مبينة؛ لأنه ما من شرك إلا وليس فيه سلطان.

وقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣] أي: أن تقولوا على الله ما لا تعلمون، وسواء كان ذلك في تفسير كلامه، أو في إثبات أحكامه، أو نفيها، أو غير ذلك، وكل من قال على الله بغير علم فهو داخل في هذه الآية فمثلًا لو قلت عن شيء: أنه واجب، وأنت لا تعلم أن الله أوجبه فحرام

عليك، ولو قلت: أظن أن هذا حرامٌ أيجوز أو لا يجوز؟ **الجواب**: يجوز؛ لأن الله -عز وجل- قال: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

فإن قال قائل: إن الله -سبحانه وتعالى- لا يُوصف بالإتيان والنزول وما أشبه ذلك، فهل قال على الله ما لا يعلم؟

الجواب: نعم، لو قال يجب على الله كذا، ويمتنع عليه كذا، بدون علم فقد قال على الله ما لا يعلم، حتى في المسائل الفقهية، تقول: (إن الله حرم كذا) بغير علم؛ ولهذا كان من ورع الإمام أحمد-رحمه الله-أنه لا يقول عن شيء إنه حرام إلا ما جاء به النص بالتحريم وإلا فهو يقول: لا ينبغي، أكرهه، لا يعجبني، وما أشبه ذلك[1]؛ إلا ما نص الله عليه كالميتة والدم، والأم والبنت، وما أشبه ذلك.

مسألة: وهل هذه الآية من باب الترقي، أو من باب ذكر الأعلى فالأعلى؟

الجواب: الأول، يعني: أن أشد شيء أن يقول على الله ما لا يعلم.

فإن قال قائل: كيف يكون هذا أشد من الشرك؟

فالجواب: لأنه لو قال على الله بلا علم لم يقتصر إفسادُه على نفسه، بل على غيره؛ لأنه بذلك أبطل الشيء، وأحل محلها شيئًا آخر؛ ولأنه إذا قال: (إن هذا يجب) وهو ليس بواجب في الشرع، معناه أنه رفع الحِلّ وجعل محله الإيجاب، لكن المشرك يضر نفسه، وإذا اهتدى زالت المفسدة بالكلية، لكن الذي يقول على الله بلا علم، لو اهتدى ورجع، وصار لا يقول إلا عن علم،

(١) انظر إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ٤٠).

فإن إفساده الأول لا يزال باقيًا، فلهذا صار القول على الله بلا علم أشدَّ من الإشراك بالله -عز وجل-، وهذا -والله- معنىً لا نعقله أكثرَ من أن نغفل عنه، فإن أكثر من يُستفتى تجده يقول: هذا حرام، وهذا حلال، وكأنه أكبر إمام في الدنيا، وهذا خطر عظيم.

فلا يستعجل الإنسان السيادة، لكن نقول: إذا كنت تريد أن تسود الناس بالعلم فانتظر حتى ييسر الله لك علمًا راسخًا، أما أن تجلس بين العوام وتفتيهم، فنقول لك: اصبر؛ لأن العوام لو جلس عندهم إنسان فصيح اللسان أضلهم ولاغتروا به، وهذا لا ينافي قوله ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**»[1]، لكن مع هذا نقول: انتظر؛ لأن الأمر خطيرٌ؛ فلذلك صار خطرُ الذي يقول على الله ما لا يعلم أعظم من خطر الشرك.

***

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١).

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

المرجع في تفسير القرآن

يُرجع في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أ- كلام الله -تعالى-: فيفسر القرآن بالقرآن، لأن الله تعالى هو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد به.

ولذلك أمثلة، منها:

١- قوله -تعالى-: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢]، فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣].

الشرح

إذن: لا أَحْسَنَ من هذا التفسير، لو أراد أحدٌ أن يفسِّر ﴿أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ لرددناه عليه؛ لأن الذي أنزل القرآن قال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، وقد أخذ شيخُ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- من هذه العبارة اللطيفة فقال: «من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا»، وهذا من القرآن: لا شك. وإذا ادَّعى مُدَّعٍ، وقال: (أنا وليٌّ لله)، بهذا اللفظ، قلنا: القرآن يكذبك؛ لقوله -تعالى-: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾، ويقول -تعالى-: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾، وأنت الآن زَكَّيْتَ نفسك فلم تتَّقِ الله فلست بوليٍّ.

وإذا قال أنه من أولياء الله وأنه يحل له أن يتزوج خمسين امرأة، وأن يأخذ ما صفا له من أموال الناس.

قلنا: أنت الآن من أعداء الله، أين الإيمان والتقوى الذي به تستحق أن تكون لله وليًّا؟

وسمعتُ أنه يوجد في بعض البلاد من يفعل هذا، يدَّعي أنه وليٌّ لله، وأن له أن يتزوج خمسين امرأة، وسمعت بعضَهم يقول: لا حدَّ له، يأخذ من النساء ما شاء، ويتخير ما شاء.

ولكن هؤلاء الذين أشار إليهم شيخ الإسلام -رحمه الله- بأنهم قومٌ من الصوفية، يقولون إن هذه العبادات من صلاة وصيام وحج يؤمر بها العامة فهي وسيلة حتى يصلوا إلى الغاية، فإذا وصلوا إلى الغاية سقطت. كالإنسان المسافر يشدُّ الرحلَ ويدني البعيرَ، ويحمل الزادَ، فإذا وصل باعَ البعير وكلَّ شيء.

ذُكِرَ أن عبد القادر الجيلاني -رحمه الله- رأى في المنام نورًا عظيمًا عظيمًا، وسمع منه صوتًا يقول: (يا عبد القادر، وصلتَ إلى الغاية، فلا صلاة عليك). ولو أن هذه الرؤيا -وهي حلم من الشيطان- صارت لهؤلاء المدَّعين لطار بها فرحًا، فقال له عبد القادر: «كذبت، ولكنك شيطان»[1]، يقول: فتمزق النور مباشرةً فتبين أن هذا النور من تخييلات الشيطان، فالمهم أن الله تعالى فسر أولياء الله في الآية بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾.

وقوله: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: لا خوف عليهم فيما يستقبل، ولا يحزنون فيما مضى؛ لأنه قد فات ما مضى بالإيمان والتقوى، والحزن إنما يكون على فوات المحبوب، أما هؤلاء فقد عمروا أوقاتهم بالإيمان والتقوى.

---

(١) شرح المواهب اللدنية (٥/ ٢٩٨)، والموافقات (٢/ ٢٧٥-٢٧٦).

٢- قوله -تعالى-: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ [الطارق:٢]، فقد فسر الطارق بقوله في الآية الثانية: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق:٣].

الشرح

قوله: ﴿وَٱلطَّارِقِ﴾ هل الواو للقسم أم هي عاطفة؟

الجواب: الأحسن كونها للقسم من كونها عاطفة؛ لأنها إذا كانت عاطفة صار ما بعدها تابعًا لما قبلها، وإذا كانت قسمًا صار ما بعدها مستقلًا.

وقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾ وهل الطارق هو المسافر الذي يطرق ليلًا؟

الجواب: لا شك أن الطارق هو المسافر الذي يطرق ليلًا، لكن فسرت الآية الطارق بقوله -تعالى-: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ أي الثاقب للظلام بنوره، ولهذا لو أنك في الصحراء وليس حولك إضاءة من الكهرباء لوجدت ظلك في ضوء بعض النجوم الثاقب، أيضًا الثاقب للشياطين الذين يسترقون السمع، كما في قوله تبارك و-تعالى-: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾، ففسر الله -عز وجل- الطارق بأنه النجم الثاقب.

فلو قال قائل: الطارق هو الذي يطرق أهلَه ليلًا فيأتي من السفر بالليل، قلنا له: كذبت، إن الله تعالى قال: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾.

* * *

٣- قوله -تعالى-: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:٣٠]، فقد فسَّر دحاها بقوله في الآيتين بعدها: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات:٣١]، ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٢].

الشرح

قوله -تعالى-: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ هذه الآية مشكلة، إن الله -سبحانه وتعالى- ذكر في سورة فصلت أن الله خلق السموات بعد الأرض، كما قال -عز وجل-: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:٩-١١]، وقال الله -عز وجل-: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا﴾ [النازعات:٢٧-٢٨].

وانظر إلى تلاوة هذه الآيات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ فنصل أو نقف ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ثم نقول: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ؟

الجواب: نقف، لأنك لو وصلت استلب المعنى فتقول: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ثم فصل فقال: ﴿بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ بين -سبحانه وتعالى- الدحو بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [النازعات:٣١-٣٣]، فهذا من تفسير كلام الله بعضه ببعض.

وهذه قاعدة: أننا إذا وجدنا تفسير القرآن بالقرآن فإننا لا نعدل به شيئًا، وذلك لأن الله -عز وجل- هو الذي فسره، وهو الذي أنزله، وهو أعلم بما أراد.

ب- كلام رسول الله ﷺ، فيفسر القرآن بالسنة، لأن رسول الله ﷺ مُبلغ عن الله تعالى، فهو أعلم الناس بمراد الله تعالى بكلامه.

الشرح

أي: نرجع في تفسير القرآن إلى كلام الرسول -عليه الصلاة والسلام-؛ لأنه لا شك أن الرسول -عليه الصلاة والسلام- أعلم الخلق بكلام الله، ولا منازعة في ذلك فإذا جاءت السنة تفسر القرآن وجب الرجوع إليها.

ولكني أقول: قد يكون تفسير السنة للآية ذكر بعض أنواع ما يدخل في الآية، لا أن المراد تفسير كل المعنى، وهذه كما تأتي في السُّنَّة تأتي أيضًا في كلام الصحابة، قد يفسرون الشيء ببعض أنواعه.

* * *

ولذلك أمثلة منها:

١- قوله -تعالى-: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، فقد فسَّر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه الله تعالى، فيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم صريحًا من حديث أبي موسى[١] وأُبي بن كعب[٢]. ورواه ابن جرير من حديث كعب بن عجرة[٣].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٩٤٥، رقم ١٠٣٤١)؛ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، المجلد الثاني (٣/ ٤٥٨-٤٥٩، رقم ٧٨٥).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٦٩، رقم ١٧٦٣٣)؛ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، المجلد الثاني (٣-٤٥٦).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (١٥/ ٦٧، رقم ١٧٦٣١)؛ واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد، المجلد الثاني (٣/ ٤٥٦-٤٥٧).

وفي صحيح مسلم[١] عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ في حديث قال فيه: «فيُكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم -عز وجل-»، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾.

الشرح

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ مبتدأ مؤخر، و﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ خبر مقدم.

﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ هي: الجنة، يعني الدار الحسنى، ولا شك أن الجنة -جعلنا الله وإياكم من أهلها- أحسن الدور، وقد فسَّر النبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- الزيادةَ بالنظر إلى وجه الله تعالى.

فهل نقول: إن المرادَ بالزيادة زيادة النعيم، كزيادة الأكل والشرب، وما أشبه ذلك؟

الجواب: لا، الزيادة فوق ذلك، وهي النظر إلى وجه الله، الذي هو أحب شيء إلى أهل الجنة، وفيما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم صريحًا من حديث أبي موسى وأبي بن كعب ورواه ابن جرير من حديث كعب بن عجرة ثلاثة صحابة، كلهم رووا عن النبي ﷺ أن المراد بالزيادة النظر إلى وجه الله.

ثم إن المؤلف أتى بشاهد في صحيح مسلم عن صهيب بن سنان عن النبي ﷺ في حديث قال فيه: «**فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ**»، يعني الرب -عز وجل- وحجابُ الربِّ النورُ، كما أخبر بذلك النبيُّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم[٢].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم -سبحانه وتعالى-، رقم (١٨١).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب في قوله -عليه السلام-: «إن الله لا ينام...»، رقم (١٧٩).

يقول: «**فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى وجه ربهم -عز وجل-**»، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، والنبي ﷺ تلا هذه الآية بعد قوله إنه يكشف الحجاب، يدل على أن المراد بالزيادة النظر إلى وجه الله.

وعلى هذا فيكون ما في صحيح مسلم مؤيِّدًا لما رواه ابن جرير وغيره، فالزيادة إِذنْ هي النظر إلى وجه الله.

***

٢- قوله -تعالى-: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال:٦٠]، فقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي. رواه مسلم[1]، وغيره من حديث عقبة بن عامر -رضي الله عنه-.

الشرح

الضمير في: ﴿لَهُم﴾ يعود إلى الكفار، وفي قوله: ﴿وَأَعِدُّوا۟﴾ يعود للمؤمنين، فقد فسَّر النبي ﷺ القوة بالرمي، رواه مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر -رضي الله عنه- قال: «**أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمْيُ**»، وصدق رسول الله -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- هناك سلاحان:

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الرمي والحث عليه، رقم (١٩١٧)، والترمذي: كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأنفال، رقم (٣٠٨٣)، وفي سند الترمذي مبهم، وأخرجه أبو داود: كتاب الجهاد، باب في الرمي، رقم (٢٥١٤)، وابن ماجه: كتاب الجهاد، باب الرمي في سبيل الله، رقم (٢٨١٣).

أولًا: ما يعرف بالسِّلاح الأبيض؛ وهو السكاكين والخناجر والسيف وعصا الحديد، وما أشبه ذلك، وهذا قوة لا شك.

والثاني: الرمي؛ وهو أقوى؛ لأنَّ الرمي يقتل الإنسانُ به عدوَّه من بعيد، فهو بلا شك أقوى، ولهذا كان الرمي أبلغ من الملاقاة باليد؛ لأن الرامي يكون في الغالب سالمًا، إذ هو يرسل السهم على عدوه.

وهل الرمي يختلف من زمن لآخر؟

الجواب: نعم، ففي عهد الرسول -عليه الصلاة والسلام- كان الرمي بالنبال وما أشبهها، ثم جاء عصرٌ آخر كان الرمي فيه بالبندقية، ثم صار في عصرنا الحالي بالصواريخ عابرة القارات، وكل هذا يدخل في الرمي؛ فكلام النبي -عليه الصلاة والسلام- عامٌّ، ويكون الرمي في كل وقتٍ بحسبه.

وتفسيره ﷺ بأن القوة: الرمي، أراد أن يبين القوةَ الأكمل، وأن الرمي أكملُ من السلاح الأبيض، كما يقولون، فالقوة هي الرمي، ومن ثَمَّ أجاز الشرعُ المسابقةَ بالرمي بعوض، لما في ذلك من تعلُّم الرمي والاستعانة به على الجهاد في سبيل الله.

* * *